

فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس، قاتمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصبرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون إماماً في الدين، إذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿١١٧﴾ ﴿وما كان ربك ليهلك القرى يظلم وأهلها مصلحون﴾ أي:

وما كان الله ليهلك أهل القرى يظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمررون عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى يظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿ولو شاء ربك

لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين مخالفين للضوابط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿إلا من رحم ربك﴾ فهدهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه، فهؤلاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عدهم فهم غخذلون موكلون إلى أنفسهم.

وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفوقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله،

والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

﴿١٢٠﴾ ﴿تمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فلا بد أن يسير للنار أهلاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿١٢٠-١٢٣﴾ ﴿وكلا نقص

عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للناس * وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال:

﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ أي: قلبك ليطمئن ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالافتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به.

﴿وجاءك في هذه﴾ السورة ﴿الحق﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويستذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بعدما قامت عليهم الآيات، ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي: حالتكم التي أنتم



عليها ﴿إنا عاملون﴾ على ما كنا عليه ﴿وانظروا﴾ ما يجلب بنا ﴿إنا منتظرون﴾ ما يجلب بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿والله غيب السماوات والأرض﴾ أي: ما غاب فيهما من الخفيا، والأمور الغيبية.

﴿والله يرجع الأمر كله﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وسلم [وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر ١٣٤٧هـ]

المجلد الرابع من تفسير التكميل الكريم الرحمن في تفسير كلام الرب الصنان لجامعه الضعيف إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع الصالحين أمين

فَمَا زَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوا فِي عَيْنَيْ أَبِيهِمْ وَجَسَاسًا
 وَإِنْ لَمْ يَجْعَلُوا لَهُمْ مِنْهُمُ أَبْرَهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ وَكَانَ
 أَبُو إِسْرَائِيلَ عَمَّا يُبْكِيكَ ﴿١١﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا أَتَدْرِيكَ نَسْتَدِينُ
 وَنَحْنُ نَعْبُدُ يَوْسُفَ عِنْدَ مَا نَعْبُدُكَ فَاسْكَنْهُ الْاِزْدِثَ وَمَا نَكُ
 بِيَوْمِنَا أَنْ نُرْوِيَكَ مَا نَكُ يَوْمِكُمْ ﴿١٢﴾ وَجَعَلَ عَلَى لَيْسَمِ
 يَوْسُفَ قَالُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لَكُمْ أَنْتُمْ كَرَامًا فَصَبِّرُوا حَيْثُ
 وَرَأَيْتُمُ السُّعْتَانَ عَلَى مَا تَصْمُرُونَ ﴿١٣﴾ وَجَعَلَتْ سَيِّدَاتُهُ
 قَالُوا يَا زَوْجَهُمْ قَالُوا قَدْ نَزَّلَ اللَّهُ قَوْلًا لِيُتْلَىٰ هَكَذَا عَلَيْنَا
 وَأَسْرَابُهُ بِصَبْرَةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَكِبِينَ ﴿١٤﴾ وَصَرَفَهُ
 مِصْرَ يَحْسِبُ فِيهِمْ مَعْرُودًا وَوَسَّوْا لِيَوْمِنَا الْأَعْيُنَ
 وَقَالَ اللَّهُ أَشْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلُ لِيُزِيلَ عَنْكُمْ أَنْعَامَهُمْ تَوَكَّلْ
 عَلَىٰ أَنْ يَخْتَارَ أَوْ يُبَدِّلْ مَا تَكْتُمُ الْأَعْيُنُ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
 الْيُوسُفَ فِي الْأَرْضِينَ وَالرَّعِيَّةُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحْكَامِ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ بِالْأَعْيُنِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ وَتَلَعَّ
 أَشْدُّهُ مِنْهُ حَكْمًا وَعِلْمًا وَكَانَ كَذَلِكَ نَجْرًا لِلْفِرْسِيِّينَ ﴿١٦﴾

تذهبوا به ﴿١٠﴾ أي: مجرد ذهابكم به
 يجزئني ويشق علي، لأنني لا أقدر على
 فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من
 إرساله ﴿١١﴾ مانع ثان، وهو أني
 أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه
 غافلون ﴿١٢﴾ أي: في حال غفلتكم عنه،
 لأنه صغير لا يمتنع من الذئب.
 قالوا لئن أكله الذئب ونحن
 عصبية ﴿١٣﴾ أي: جماعة، حريصون على
 حفظه، ﴿إنا إذا لخاسرون﴾ أي:
 لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله
 الذئب وغلبنا عليه.
 فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية
 لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ
 بإرساله معهم لأجل أنسه.
 ﴿١٥- ١٨﴾ فلما ذهبوا به
 وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب
 وأوحينا إليه لتبئنههم بأمرهم هذا وهم
 لا يشعرون * وجاؤوا أباهم عشاء
 يبكون * قالوا يا أبانا إنا ذهبن نستيق
 وتركتنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب
 وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين *
 وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل
 سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل
 والله المستعان على ما تصفون ﴿١٦﴾ أي: لما
 ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن
 له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في
 غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق
 ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا
 عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، والقوه في

﴿١٠﴾ قال قائل منهم لا تقتلوا
 يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه
 بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴿١١﴾ أي:
 ﴿قال قائل﴾ من إخوة يوسف الذين
 أرادوا قتله أو تبعيده: ﴿لا تقتلوا
 يوسف﴾ فإن قتله أعظم إنمأ وأشنع،
 والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من
 غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن
 تلقوه ﴿في غيابة الجب﴾ وتتوعدوه
 على أنه لا يجبر بشأنكم، بل على أنه
 عبد مملوك أبق منكم، لأجل أن
 يلتقطه بعض السيارة ﴿الذين يريدون
 مكاناً بعيداً، فيحفظون فيه .
 وهذا القائل أحسنهم رأياً في
 يوسف، وأبرهم وأقاهم في هذه
 القضية، فإن بعض الشر أهون من
 بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر
 الثقيل، فلما اتفقوا على هذا الرأي.
 ﴿١١- ١٤﴾ قالوا يا أبانا ما لك
 لا تأمننا على يوسف وإننا له
 لناصحون * أرسله معنا غداً يرتع
 ويلعب وإننا له لحافظون * قال إني
 ليحزنتي أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله
 الذئب وأنتم عنه غافلون * قالوا لئن
 أكله الذئب ونحن عصبية إنا إذا
 لخاسرون ﴿١٢﴾ أي: قال إخوة يوسف،
 متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يا
 أبانا مالك لا تأمننا على يوسف وإننا له
 لناصحون﴾ أي: لأي شيء يدخلك
 الخوف منا على يوسف، من غير سبب
 ولا موجب؟ ﴿و﴾ الحال ﴿إننا له
 لناصحون﴾ أي: مشفقون عليه، نود
 له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن
 يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف
 يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.
 فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة
 من عدم إرساله معهم، ذكروا له من
 مصلحة يوسف وأنه الذي يحبه أبوه
 له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله
 معهم، فقالوا:
 ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾
 أي: ينتزه في البرية ويستأنس، ﴿وإننا
 له لحافظون﴾ أي: سراعيه، ونحفظه
 من أذى بريده.
 فأجابهم بقوله: ﴿إني ليحزنتي أن

إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾ أي:
 حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت
 الرئيس الشريف عليهم.
 ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾
 لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً
 ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي
 يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل
 يوسف أمر أبيه، ولم يجبر إخوته بذلك،
 بل كتمها عنهم.
 ﴿٧- ٩﴾ ﴿لقد كان في يوسف
 وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا
 ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن
 عصابة إن أبانا لفي ضلال مبين * ائتلا
 يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه
 أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾
 يقول تعالى: ﴿لقد كان في يوسف
 وإخوته آيات﴾ أي: عبر وأدلة على
 كثير من المطالب الحسنة، ﴿للسائلين﴾
 أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو
 بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين
 ينتفعون بالآيات والعبر، وأما
 المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا
 في القصص والبيئات.
 ﴿إذ قالوا﴾ فيما بينهم: ﴿ليوسف
 وأخوه﴾ بنيامين، أي: شقيقه، وإلا
 فكلهم إخوة، ﴿أحب إلى أبينا منا
 ونحن عصبية﴾ أي: جماعة، فكيف
 يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة، ﴿إن
 أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي: لفي خطأ
 بين، حيث فضلهما علينا من غير
 موجب نراه، ولا أمر نشاهده.
 ﴿ائتلا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾
 أي: غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا
 يتمكن من رؤيته فيها.
 فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين
 يخل لكم وجه أبيكم﴾ أي: يتفرغ
 لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة،
 فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا
 يتفرغ لكم، ﴿وتكونوا من بعده﴾ أي:
 من بعد هذا الصنيع ﴿قوماً صالحين﴾
 أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من
 بعد ذنبكم.
 فقدما العزم على التوبة قبل صدور
 الذنب منهم تسهياً لفعله، وإزالة
 لشناعته، وتشيطاً من بعضهم لبعض .



الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة، **﴿لنتبسننهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾** أي: سيكون منك معاتبه لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

﴿وجاؤوا أباهم عشاء يبكون﴾ ليكون إتيانهم متأخراً عن عاداتهم، وبكائهم دليلاً لهم، وقريئة على صدقهم، فقالوا - متعذرين ^(١) - **﴿بعضر كاذب - يا أبانا إنا ذهبنا نستيق﴾** إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال، **﴿وتركتنا يوسف عند متاعنا﴾** توفيراً له وراحة، **﴿فأكله الذئب﴾** في حال غيبتنا عنه في استباقنا، **﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾** أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والرقه الشديدة عليه.

ولكن عدم تصديقك إيانا، لا يعنينا أن نعتذر بالعذر الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعذرتهم، **﴿و﴾** مما أكدوا به قولهم، أنهم **﴿جاؤوا على قميصه بدم كذب﴾** زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم

أبوهم بذلك، و **﴿قال﴾**: **﴿بيل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾** أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه، لأنه رأى من القرأتين والأحوال لومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ^(٢) ما دلّه على ما قال.

﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أن أصبر على هذه المحنة صبراً جميلاً، سالماً من السخط والشكوى إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: **﴿إنما أشكو بشي وحزني إلى الله﴾** لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وفي.

﴿١٩ - ٢٠﴾ **﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم﴾** فأطلق دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون * وشروه بثمان بخص دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين **﴿أي: مكث يوسف في الجب ما مكث، حتى﴾** جاءت سيارة **﴿أي: قافلة تريد مصر، فأرسلوا واردهم﴾** أي: فرطهم ومقدمهم، الذي يعس لهم المياه، ويسرها ويستعد لهم بتهيئة الخياض ونحو ذلك، **﴿فأدلى﴾** ذلك النوار **﴿دلوه﴾** فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج، **﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾** أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس، **﴿وأسروه بضاعة﴾** وكان إخوته قريباً منه، فاشتراه السيارة منهم، **﴿بثمان بخص﴾** أي: قليل جداً، فسره بقوله: **﴿دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾**

لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فرعموا أنه عبد أب

منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لثلاثا يهرب، والله أعلم.

﴿٢١﴾ **﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولتعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه، أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: **﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾** أي: إما ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد، **﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾** أي: كما يسرنا أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام، جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق.

﴿ولتعلمه من تأويل الأحاديث﴾ إذا بقي لا شغل له ولا همّ له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، **﴿والله غالب على أمره﴾** أي: أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب، **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدرية، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿٢٢﴾ **﴿ولما بلغ أشده آتيته حكماً وعلماً وكذلك تجزي المحسنين﴾** أي: **﴿لما بلغ﴾** يوسف **﴿أشده﴾** أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلاح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة، من النبوة والرسالة، **﴿آتيته حكماً وعلماً﴾** أي: جعلناه نبياً رسولاً، وعالمًا ربانيًا، **﴿وكذلك تجزي المحسنين﴾** في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم

(٢) زيادة من هامش: ب.

(١) في ب: عدلت إلى (متعذرين).

علماً نافعاً .

ودل هذا، على أن يوسف وثق مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة .

﴿٢٣ - ٢٩﴾ «ورأوته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون * ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين * واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألقيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم * قال هي روادنتي عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم * يوسف عرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين * هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعاً أو كارهاً، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن «رأوته التي هو في بيتها عن نفسه» أي: هو غلامها، وتحت تديرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر .

﴿١٠﴾ زادت المصيبة، بأن «غلقت الأبواب» وصار المحل خالياً، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، بسبب تغلق الأبواب، وقد دعت إلى نفسها «وقالت: هيت لك» أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي، ومع هذا، فهو

غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيده، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عزب، وقد توعدته، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم .

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها مما تركه الله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و «قال: معاذ الله» أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي .

فلا يلين بي أن أقابله في أهله بأفحى مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عبادتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه .

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المرادة الشديدة، ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرت إليه، وتعلقت بشوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألقيا سيدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمراً شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المرادة قد كانت من يوسف، وقالت: «ما جزاء من أراد

بأهلك سوءاً» ولم تقل «من فعل بأهلك سوءاً» تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل .

وإنما النزاع عند الإرادة والمرادة، «إلا أن يسجن أو عذاب أليم» أي: أو يعذب عذاباً أليماً .

فبرأ نفسه مما رمته به، وقال: «هي روادنتي عن نفسي» فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما .

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبه وصفه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: «إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين» لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراد لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب .

«وإن كان قميصه قد من دبر، فكذبت وهو من الصادقين» لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب، «فلما رأى قميصه قد من دبر» عرف بذلك صدق يوسف وبرأته، وأنها هي الكاذبة .

فقال لها سيدها: «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم» وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: «يوسف عرض عن هذا» أي: أترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلباً للستر على أهله، «واستغفري» أي: أيتها المرأة «لذنبك إنك كنت من الخاطئين» فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة .

﴿٣٠ - ٣٥﴾ «وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إننا لَنراها في ضلال

مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكئا وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذي لمتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلین * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين * يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها، ويقلن: * امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً * أي: هذا أمر مستفح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً .

قد شغفها حباً * أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب، * إنا لنراها في ضلال مبين * حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قُدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهن مكرأ، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحقق امرأة العزيز، وتريهن إياه ليعذرنا، ولهذا سماه مكرأ، فقال: * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن * تدعوهم إلى منزلها للضيافة .

وأعدت لهن متكأ * أي: محلاً مهياً بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرت في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج، أو غيره، * وأتت كل واحدة منهن سكيناً * ليقطن فيها ذلك الطعام

وقالت * ليوسف: * أخرج عليهن في حالة جماله وبهائه .
فلما رأينه أكبرنه * أي: أعظمته في صدورهن، ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله، * وقطنن * من الدهش * أيديهن * بتلك السكاكين اللاتي معهن، * وقلن: حاش لله * أي: تنزيهاً لله * ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم * وذلك أن يوسف أعطى من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين .

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير - أردت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: * ولقد راودته عن نفسه فاستعصم * أي: امتنع وهي مقيمة على مراودته، لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقاً ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقاً .

ولهذا قالت له بحضرتين: * ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * لتلجته بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و * قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه * وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكذبنه في ذلك .

فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد، * وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن * أي: أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني السوء، * وأكن * إن صبوت إليهن * من الجاهلین * فإن هذا جهل، لأنه أثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه!! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة .

فاستجاب له ربه * حين دعاه فصرف عنه كيدهن * فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى أتسها، وصرف الله عنه كيدها، * إنه هو السميع * لدعاء الداعي * العليم * بنيت الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجي الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة، وأما أسياده فإنه لما اشتهر الخير وبان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح .

بدا لهم * أي: ظهر لهم * من بعد ما رأوا الآيات * الدالة على براءته، * ليسجننه حتى حين * أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدت أسبابه نسيت، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن .

٣٦ - ٤٠ * ودخل معه السجن فتیان قال أحدهما إني أراي أحضر خيراً وقال الآخر إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبتنا بتأويله إنا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا تباؤكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعتم ملة آياتي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * أي: * و * لما دخل يوسف السجن، كان في جملة من * دخل معه السجن فتیان * أي: شايان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها، * قال أحدهما: إني أراي أحضر خيراً، وقال الآخر: إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً * وذلك الخبز * تأكل الطير منه

تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا، وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتماً لها غاية، فعبّر بها يوسف - وقعت عندهم موقفاً عظيماً، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون عمداً ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود الذي يغطيه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت أنطافه، ودقت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفياه وأوليائه، «وقال الذي نجأ منهما» أي: من الفتيين، وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرأ، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه «وإذ ذكر بعد أمة» أي: وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيلاً بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين، فقال: «أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون» إلى يوسف لأسأله عنها.

فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعننه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابته عن ذلك، فقال: «يوسف أيها الصديق» أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، «أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون» فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهمتهم.

يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون * ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون * ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون * لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، الذي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، وبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

وذلك أنه رأى رؤيا هالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي: منهم وقال: «إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع» أي: سبع من البقرات «عجاف» وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات التي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كُنَّ نهاية في القوة.

«و» رأيت «سبع سنبلات خضر» يأكلن سبع سنبلات «يابسات» «يا أيها الملائكة أفتوني في رؤياي» لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد، «إن كنتم للرؤيا تعبرون» فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجهاً. و «قالوا: أضغاث أحلام» أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، [بما ليس بعدراً^(١)] ثم قالوا: «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» أي: لا نعبّر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإننا لا نعبّر بها.

فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم



ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين * أي: «وقال» يوسف عليه السلام: «للذي ظن أنه ناج منهما» وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرأ: «أذكرني عند ربك» أي: أذكر له شأني وقصتي، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، «فأنساه الشيطان ذكر ربه» أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بآثم الإحسان، وذلك ليم الله أمره وقضاه.

«فلبث في السجن بضع سنين» والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج يوسف من السجن، قدر لذلك سبباً، كان سبباً لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك.

«٤٣ - ٤٩» «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملائكة أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون» قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذي نجأ منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان

يوسف عن نفسه ﴿ فهل رأيتن منه ما يريب؟ ﴾ .

قَرَأْتَنَّهُ و ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أي: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذي تنبئ عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، ف ﴿ قالت امرأة العزيز الآن ححصص الحق ﴾ أي: تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن^(١). ﴿ أنا رادوته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين ﴾ في أقواله وبرامته، ﴿ ذلك ﴾ الإقرار الذي أقررت أني راودت يوسف، ﴿ ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ .

يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي: ليعلم أي حين أقررت أني راودت يوسف، أي لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر مني إلا مجرد المرادة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني، ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيائته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره .

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تركية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: ﴿ وما أبريء نفسي ﴾ أي: من المرادة والههم، والحرص الشديد، والكيد في ذلك، ﴿ إن النفس لأماراة بالسوء ﴾ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ فنجاه من نفسه الأماراة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، متقادة لداعي الهدى، متعاضية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبدته .

﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿ رحيم ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في

الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح .

﴿ ٥٠ - ٥٧ ﴾ ﴿ وقال الملك اثنتونى ﴾ به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم * قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن ححصص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين * وما أبريء نفسي إن النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم * وقال الملك اثنتونى به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين * قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم * وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون * يقول تعالى: ﴿ وقال الملك ﴾ لمن عنده ﴿ اثنتونى به ﴾ أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن ويحضره إليه، فلما جاء يوسف الرسول وأمره بالحضر عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام .

ف ﴿ قال ﴾ للرسول: ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ يعني به الملك، ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ فأحضرهن الملك، وقال: ﴿ ما خطبكن ﴾ أي: شأنكن ﴿ إذ راودتن

فعبير يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضراء، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سبع سنين مجذبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحرث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحرث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك . وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحرث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجذب فقال: ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ أي: متتابعات .

﴿ فما حصدتم ﴾ من تلك الزروع ﴿ فذروه ﴾ أي: اتركوه ﴿ في سنبله ﴾ لأنه أبقى له وأبعد عن الالتفات إليه ﴿ إلا قليلاً ما تأكلون ﴾ أي: دبروا أيضاً أكلكم في هذه السنين الخصبية، وليكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه .

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات، ﴿ سبع شداد ﴾ أي: مجذبات جداً ﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً، ﴿ إلا قليلاً ما تحصنون ﴾ أي: تمنعون من التقديم لهن .

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ أي: بعد السبع الشداد ﴿ عام فيه يقات الناس وفيه يعصرون ﴾ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير^(١) بالسبع

(٢) كذا في ب وفي أ: لسجن يوسف .

(١) في ب: التعبير .

السجن لم يحضر .

فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك وقال : **«انتوني به أستخلصه لنفسي»** أي : أجعله خصيصة لي ومقرباً لدي فأتوه به مكرماً محترماً ، **«فلما كلمه»** أعجبه كلامه ، وزاد موقعه عنده فقال له : **«إنك اليوم لدينا»** أي : عندنا **«مكين أمين»** أي : متمكن ، أمين على الأسرار ، ف **«قال»** يوسف طلباً للمصلحة العامة : **«اجعلني على خزائن الأرض»** أي : على خزائن جبايات الأرض وغللالها ، وكيلاً حافظاً مدبراً .

«إني حفيظ عليم» أي : حفيظ للذي أتولاه ، فلا يضيع منه شيء في غير محله ، وضابط للدخل والخارج ، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع ، والتصرف في جميع أنواع التصرفات ، وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية ، وإنما هو رغبة منه في النفع العام ، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه .

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إيساها ، قال تعالى : **«وكذلك»** أي : بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة ، **«مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء»** في عيش رغد ، ونعمة واسعة ، وجاء عريض ، **«نصيب برحمتنا من نشاء»** أي : هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له ، وليست مقصورة على نعمة الدنيا .

«ولا نضيع أجر المحسنين» ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين ، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، ولهذا قال : **«ولأجر الآخرة خير»** من أجر الدنيا **«للذين آمنوا وكانوا يتقون»** أي : لمن جمع بين التقوى والإيمان ، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها ، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب ، بما أمر الله بالتصديق به ، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال

الجوارح ، من الواجبات والمستحبات .

«٥٨ - ٦٨» **«وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون * ولما جهزهم بجهازهم قال انتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين * فإن لم تأتونني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون * وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون * فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون * قال هل أنتمكم عليه إلا**

كما أنتمكم على أخيه من قبل فآله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين * ولما فتحو متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير * قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل * وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوه ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون * أي : لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض ، دبرها أحسن تدبير ، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين المخصبة زروعاً هائلة ، واتخذ لها المحلات الكبار ، وجبا من الأطعمة شيئاً كثيراً وحفظه ، وضبطه ضبطاً تاماً ، فلما دخلت السنون المجدية ، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين ، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه ، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر ، **«وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون»** أي : لم يعرفوه .

«ولما جهزهم بجهازهم» أي : كال

لهم كما كان يكيل لغيرهم ، وكان من تديبره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حل بعير ، وكان قد سألهم عن حالهم ، فأخبروه أن لهم أخاً عند أبيه ، وهو بنيامين .

ف **«قال»** لهم : **«انتوني بأخ لكم من أبيكم»** ثم رغبهم في الإتيان به فقال : **«ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين»** في الضيافة والإكرام . ثم رهبهم بعدم الإتيان به ، فقال : **«فإن لم تأتونني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون»** وذلك لعلهم باضطرابهم إلى الإتيان إليه ، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به .

ف **«قالوا سنراود عنه أباه»** دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه ، وكان يتسل به بعد يوسف ، فلذلك احتاج إلى مرادة في بعته معهم **«وإنا لفاعلون»** لما أمرتنا به .

«وقال» يوسف **«لفتيانه»** الذين في خدمته : **«اجعلوا بضاعتهم»** أي : الثمن الذي اشتروا به من الميرة .

«في رحالهم لعلهم يعرفونها» أي : بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم ، **«لعلهم يرجعون»** لأجل التخرج من أخذها على ما قيل ، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً ، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها ، ولا يشعرون لما يأتي ، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن .

«فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل» أي : إن لم ترسل معنا أخانا ، **«فأرسل معنا أخانا نكتل»** أي : ليكون ذلك سبباً لكيلنا ، ثم التزموا له بحفظه ، فقالوا : **«وإنا له لحافظون»** من أن يعرض له ما يكره ، **«قال»** لهم يعقوب عليه السلام : **«هل أنتمكم عليه إلا كما أنتمكم على أخيه من قبل»** أي : تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف ، ومع هذا لم تقوا بما عقدتم من التأكد ، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم ، وإنما أثق

بالله تعالى .

﴿فإنه خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ أي : يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم، ثم إنهم ﴿لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلوماً عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، ف ﴿قالوا﴾ لأبيهم - ترغيباً في إرسال أخيه معهم - : ﴿يا أبانا ما نبغي﴾ أي : أي : شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفق لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟ .

﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا﴾ أي : إذا ذهبتنا بأخيها صار سبباً لكيه لنا، فمرنا^(١) أهلنا، وأتينا^(٢) لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت، ونحفظ أختانا ونزدد كيل بعير﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي : سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت .

ف ﴿قال﴾ لهم يعقوب : ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾ أي : عهداً ثقيلاً، وتخلفون بالله ﴿لئلا تنتي به إلا أن يحاط بكم﴾ أي : إلا أن يأتيكم أمر لا يقبل لكم به، ولا تقدرتون دفعه، ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ على ما قال وأراد ﴿قال : الله على ما نقول وكيل﴾ أي : تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفائه، ثم لما أرسله معهم وصاهم إذا هم قدموا مصر، أن ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء^(٣) رجل واحد، وهذا سبب .

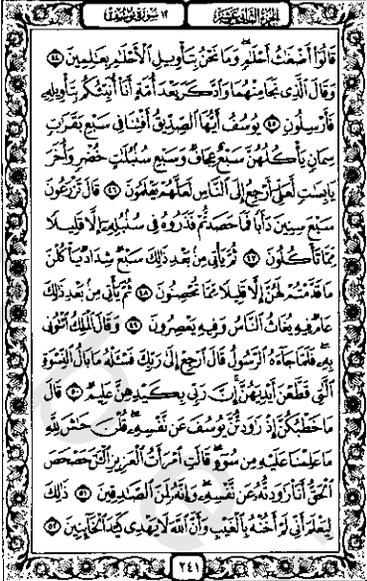
﴿ولا﴾ إلا ف ﴿ما أغني عنكم من الله من شيء﴾ فالمقدر لا بد أن يكون، ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي : القضاء

قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿عليه توكلت﴾ أي : اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب .

﴿ولما﴾ ذهبوا و ﴿دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان﴾ ذلك الفعل ﴿يغني عنهم من الله من شيء﴾ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره .

وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه : ﴿وإنه لدو علم﴾ أي : لصاحب علم عظيم ﴿لما علمناه﴾ أي : لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولو أزمه شيء كثير .

﴿٦٩ - ٧٩﴾ ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتسح بما كانوا يعملون﴾ فلما جهمهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ قالوا تفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفد في الأرض وما كنا سارقين﴾ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم



بيدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴿قالوا يا أيها العزيز إننا أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون﴾ أي : لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿آوى إليه أخاه﴾ أي : شقيقه وهو «بنيامين» الذي أمرهم بالإتيان به [و] ضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿قال : إني أنا أخوك فلا تبتسح﴾ أي : لا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر .

﴿فلما جهمهم بجهازهم﴾ أي : كأن لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، ﴿جعل السقاية وهو : الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه ﴿في رحل أخيه ثم﴾ أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين، ﴿أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال، ﴿قالوا﴾ أي : إخوة يوسف ﴿وأقبلوا عليهم﴾ لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عن سرق منه، لتسلم لهم سرقته، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا

(٣) كذا في ب، وفي أ: ابن .

(٢) في ب: وناتي .

(١) في ب: فتمير .

وجدنا متاعنا عنده ﴿أي﴾: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب، ﴿إنا إذا﴾ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿لظالمون﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ ﴿فلما استياسوا منه خلصوا نجياً﴾ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين﴾ وأسأل القرية التي كنا فيها

والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴿قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾ أي: فلما استياس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خلصوا نجياً﴾ أي: اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ فاجتمع عليكم الأمران، تفرطكم في يوسف السابق، وعدم إيتانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي.

﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي﴾ أي: يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ أي: وأخذ بسرقتي، ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك. والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخراج من رحله، ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في

يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتها شيئاً ﴿استخرجها من وعاء أخيه﴾ ولم يقل «وجدها»، أو سرقها أخوه ﴿مراعاة للحقيقة الواقعة.

فحيث تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلوردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، لئيم له ما أراد.

قال تعالى: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ فكل عالم، فوqe من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة، فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قالوا إن يسرق﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه، ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا.

وفي هذا من الغض عليهما ما فيه، ولهذا: أسرها يوسف في نفسه ﴿ولم يبدها لهم﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأمر الأمر في نفسه، و ﴿قال﴾ في نفسه ﴿أنتم شرمكان﴾ حيث ذمتمونا بما أنتم على أشر منه، ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها، ثم سلخوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم.

﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك، ﴿قال﴾ يوسف ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من



إزالة التهمة التي رما بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿ماذا تفقدون﴾ ولم يقولوا: ﴿ما الذي سرقنا﴾ لجزمهم بأنهم براء من السرقة، ﴿قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي: أجرة له على وجدانه ﴿وأنا به زعيم﴾ أي: كفي، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وما كنا سارقين﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبوا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهمهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: ﴿تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق﴾.

﴿قالوا فما جزاؤه﴾ أي: جزاء هذا الفعل ﴿إن كنتم كاذبين﴾ بأن كان معكم؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو﴾ أي: الموجود في رحله ﴿جزاؤه﴾ بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾.

﴿فبدأ﴾ المفتش ﴿باوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ وذلك لتزول الريبة التي

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رُقَّ لهم يوسف رُقَّةً شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم.

﴿٨٩-٩٢﴾ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون * قالوا أإنتك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين * قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه * أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم: * إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل * أو أن الحادث الذي فرَّق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له، * إذ أنتم جاهلون * وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: * أإنتك لأنت يوسف؟ قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا * بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، * إنه من يتق ويصبر * أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها * فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فأثرك الله تعالى ومكنك مما تريد * وإن كنا لخاطئين * وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

ف * قال لهم يوسف عليه السلام، كرمأ وجوداً:

أحوالك، * حتى تكون حرضاً * أي: فانياً لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام.

﴿أو تكون من الهالكين﴾ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً، * قال يعقوب * إنما أشكو بثي * أي: ما أثبت من الكلام * وحزني * الذي في قلبي * إلى الله * وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم * وأعلم من الله ما لا تعلمون * من أنه سيردهم عليّ ويقر عيني بالاجتماع بهم.

﴿٨٧-٨٨﴾ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون * فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين * أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: * يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه * أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما * ولا تيأسوا من روح الله * فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإيأس: يوجب له التنازل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، * إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون * فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه، فذهبوا * فلما دخلوا عليه * أي: على يوسف * قالوا * متضرعين إليه: * يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا * أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا * وجئنا ببضاعة مزجاة * أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها، وعدم وقوعها الموقع، * فأوف لنا الكيل * أي: مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. * إن الله يجزي المتصدقين * بثواب الدنيا والآخرة.

ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدنا وموآثقتنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، * واسأل * إن شككت في قولنا القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها * فقد اطلعوا على ما أخبرناك به * وإنا لصادقون * لم نكذب ولم نغيب ولم نبذل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمده، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، و * قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل * أي: ألبأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكرية انتهت فقال: * عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً * أي: يوسف و «بنيامين»، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

﴿إنه هو العليم﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفرجه ومبشئته، واضطراري إلى إحسانه، * الحكيم * الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿٨٤-٨٦﴾ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم * قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين * قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون * أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمند الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك.

﴿فهو كظيم﴾ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، * وقال يا أسفى على يوسف * أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى، فقال له أولاده متعجبين من حاله: * تالله تفتأ تذكر يوسف * أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع

﴿لا تشرب عليكم اليوم﴾ أي: لا أشرّب عليكم ولا أوسمكم ﴿يعفّر الله لكم، وهو أرحم الراحمين﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿٩٣-٩٨﴾ ﴿أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وتأتيهم أجمعين﴾ * ولما فصلت العير قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون * قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم * فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون * قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ربّي إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

﴿واتشوني بأهلكم أجمعين﴾ أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق.

﴿ولما فصلت العير﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، ثمّ يعقوب ريح القميص، فقال: ﴿إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ أي: تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول، فوقع ما ظنه بهم فقالوا:

﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي: لا تزال تائهماً في بحر الحب لا تدري ما تقول.

﴿فلما أن جاء البشير﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، ﴿ألقاه﴾ أي: القميص ﴿على وجهه فارتد بصيراً﴾ أي: رجع على حاله الأولى بصيراً، بعد أن ابضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه، ويتعجبون منه منتصراً عليهم، متيحجاً بنعمة الله عليه: ﴿ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ حيث كنت مترجياً للقاء يوسف، مترقباً لزوال الهم والغم والحزن.

فأقروا بذنبيهم ونجموا بذلك و ﴿قالوا: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا.

ذ ﴿قال﴾ مجيباً لطلبهم، ومسرعاً لإجابتهم: ﴿سوف أستغفر لكم ربّي، إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتمّ للاستغفار، وأقرب للإجابة.

﴿٩٩-١٠٠﴾ ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ * ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربّي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾ أي: ﴿فلما﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنهاها، فلما وصلوا إليه، و ﴿دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام^(١) والتبجيل والإعظام شيئاً

عظيماً، ﴿وقال﴾ لجميع أهله: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ من جميع المكاره والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي: على سرير الملك، ومجلس العزيز، ﴿وخروا له سجداً﴾ أي: أبوه، وأمه وإخوته، سجدوا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام، ﴿وقال﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجدتهم له: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قد جعلها ربّي حقاً﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام.

﴿وقد أحسن بي﴾ إحساناً جسيماً ﴿إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب، لتمام عفوّه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إليّ.

فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: ﴿أحسن بكم﴾ بل قال ﴿أحسن بي﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، فبتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويبب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ﴿من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ فلم يقل ﴿نزع الشيطان إخوتي﴾ بل كان الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

﴿إن ربّي لطيف لما يشاء﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إنه هو العليم﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، ﴿الحكيم﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه

الأمر إلى أوقاتها المقدرة لها .

﴿١٠١﴾ ﴿رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وأحقني بالصالحين﴾ لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك، وأقر عينه بأبويه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، قال مقراً بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثابت على الإسلام:

﴿رب قد أتيتني من الملك﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتديرها ووزيراً كبيراً للملك ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً﴾ أي: أدم على الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت، ﴿وأحقني بالصالحين﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿١٠٢﴾ ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ذلك﴾ الأنبياء الذي أخبرناك به ﴿من أنباء الغيب﴾ الذي لولا إيجازنا إليك لما وصل إليك هذا الخير الجليل، فإنك لم تكن حاضراً لديهم ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وهم يمكرون﴾ به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أحداً أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها.

كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له، ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين﴾ الآيات، فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله حقاً.

﴿١٠٣ - ١٠٧﴾ ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وما تسألهم

عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين * وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون * أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون * يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت﴾ على إيمانهم ﴿بمؤمنين﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدمت الموانع، بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم، من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا. ولهذا قال:

﴿وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليركوه. ﴿وكأين﴾ أي: وكم ﴿من آية في السماوات والأرض يمرون عليها﴾ دالة لهم على توحيد الله ﴿وهم عنها معرضون﴾.

ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان فلا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴿فهم وإن أقروا ببروبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدير لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال:

﴿أفأمنوا﴾ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله ﴿أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ أي: عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم، ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ أي: فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتوبوا إلى الله، وتركوا ما يكون سبباً في عقابهم.

﴿١٠٨ - ١٠٩﴾ ﴿قل هذه سبيلي وأدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى



إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ للناس ﴿هذه سبيلي﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، ﴿أدعوا إلى الله﴾ أي: أحث الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك وأرهبهم عما يعدهم عنه.

ومع هذا فأننا ﴿على بصيرة﴾ من ديني، أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية، ﴿و﴾ كذلك ﴿من اتبعني﴾ يدعو إلى الله كما أدعو، على بصيرة من أمره ﴿وسبحان الله﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.

﴿وما أنا من المشركين﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصاً له الدين. ثم قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلا شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿نوحى إليهم من أهل القرى﴾ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى



الشدة منهم على الرسل .
في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴿٤٠٧﴾
ما تقدم في مطاوعها من الفوائد .

حتى إن الرسل - على كمال يقينهم ، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يحظر بقلوبهم نوع من الإيأس ، ونوع من ضعف العلم والتصديق ، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جاءهم نصرنا فنجى من نساء﴾ وهم الرسل وأتباعهم ، ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ أي : ولا يرد عذابنا ، عمّن اجترم ، وتجراً على الله ﴿فما لهم من قوة ولا ناصر﴾ .

﴿لقد كان في قصصهم﴾ أي :
قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ،
﴿عبرة لأولي الألباب﴾ أي : يعتبرون

بها ، أهل الخير وأهل الشر ، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة ، ويعتبرون بها أيضاً ، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة ، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له .

وقوله : ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾
أي : ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المقترة المختلفة ، ﴿ولكن كان تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب السابقة ، يوافقها ويشهد لها بالصحة ، ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ، ومن الأدلة والبراهين .

﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾
فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى ، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة .

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ وقال ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ وقال في آخرها ﴿لقد كان

الذين هم أكمل عقولاً ، وأصح آراء ، وليتبين أمرهم ويتضح شأنهم .

﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ إذا لم يصدقوا لقولك ، ﴿فينظروا كيف كان عقابة الذين من قبلهم﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم ، فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه ، فيصيبكم ما أصابهم ، ﴿ولدار الآخرة﴾ أي : الجنة وما فيها من النعيم المقيم ، ﴿خير للذين اتقوا﴾ الله في امثال أوأمره ، واجتناب نواهيه ، فإن نعيم الدنيا منغص منكذ ، منقطع ، ونعيم الآخرة تام كامل ، لا يقضى أبداً ، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل ، ﴿عطاء غير مجدود﴾ ﴿أفلا تعقلون﴾ أي : أفلا تكون لكم عقول تؤيّر الذي هو خير على الأدنى .

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿حتى﴾ إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نساء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ يجبر تعالى : أنه يرسل الرسل الكرام ، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام ، وأن الله تعالى يمهلمهم ليرجعوا إلى الحق ، ولا يزال الله يمهلمهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية

ومن لازم ذلك أن يكون مجتسبي مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك ، ولذلك قال له أبوه : ﴿وكذلك يجتسبك ربك ويعلمك من تأويل



لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين .

ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: ﴿وَأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ وهم أولاد يعقوب الانثى عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة .

ومنها: ما آمن الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، ونعم ذلك بأنه لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به .

ثم برؤه العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق .

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقيائه أرضاً، وقال قائل منهم: ﴿لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير .

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ .

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب﴾ ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف .

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يخطر عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا، لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وأثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيم .

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الخيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبيكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلموا صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وأثاره التابعة والسابقة واللاحقة .

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء

الأحاديث ﴿ومن المناسبة في رؤيا الفتيتين، أنه أول رؤيا، الذي رأى أنه يعصر خمرًا، أن الذي يعصر في العادة، يكون خادماً لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن .

وأول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل .

وأول رؤيا الملك للبقرات والسنبلات، بالسنين المخصصة، والسنين المجدبة، ووجه المناسبة أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه .

وأما البقر فإنها تحرت الأرض عليها، ويستقى عليها الماء، وإذا أخضبت السنة سمتت، وإذا أجدبت صارت عجافاً، وكذلك السنايل في الخصب، تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض .

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً .

يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أمي لا يحظ ولا يقرأ، وهي موافقة، لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تحشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾

وكذلك وجود الرجل يتقياً الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملاً فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمي الله هذا الحاكم شاهداً فقال: ﴿وشاهد شاهد من أهلها﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لئنها على ذلك أن تقطن أيديهن وقلن ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾. وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراهته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ وقالت بعد ذلك: ﴿الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ وقالت النسوة: ﴿حاش الله ما علمنا عليه من سوء﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية - أن يختار العقوبة الدنيوية على موافقة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكفر العبد أن يعود في الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكفر أن يلقي في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿ولا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، ونهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله» وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزماً، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله الله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فر هارباً، يطلب الباب ليتخلص من شرها، ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشياء والأثر، من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبهما.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة،



لا إثم على من يشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بعبء حراماً، لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً، وسماه الله شراً^(١)، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المرادة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الهم الذي هم به يوسف بالمرأة، ثم تركه الله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن الهم داع من دواعي النفس الأمامة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «رجل دعت امرأة ذات

(١) كذا في أ، وفي ب: سيداً، ويبدو والله أعلم أن مراد الشيخ - رحمه الله - أن الله قال: (وشروه) فسمى الله فعلهم شراء مع كونه



مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿اجعلني على خزان الأرض إني حفيظ عليهم﴾ وكذلك لا تدم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجودا غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فبهذه الأمور، ينهى عن طلبها، والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطمحة في السنين المخضبات، للاستعداد للسنين المجذبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله،

يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتیین أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا ويخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جوابا تاما من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخضبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمده على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تثبت لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطنن أيديهن، ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من أثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المراني داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وقال الملك: ﴿أفتوتوني في رؤياي﴾ وقال الفتى ليوسف: ﴿أفتتنا في سبع بقرات﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك

ومنها: أنه كما على العبد عبودية الله في الرخاء، فعليه عبودية في الشدة، ف«يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتیین إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالوا له: ﴿إننا نراك من المحسنين﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرأهما متشرفين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتزها، فدعاها إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولا، أن الذي أوصله إلى الحال التي رآها فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاها بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحققة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المقتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتیان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتين: ﴿اذكري عند ربك﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أولا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن



ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه وديناه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً حتى صار أهل الأنظار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف ليقول يوسف لإخوته ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾.

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده - بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عاجلوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هل آسنكم عليه إلا كما آسنتكم على أخيه من قبل﴾ ثم لما احتسبه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير

إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرفاعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: ﴿يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾.

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما المنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يجب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهماً أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ ولم يقل «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه^(١)، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبين الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويجزئه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمسة عشر سنة،

ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفي بما وعده، ولا ينافي ذلك، قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ فإن الشكوى إلى الله لا تنافي للصبر، وإنما الذي ينافيه، الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنه ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يتبلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفاتهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه السخط، لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يا أيها العزيز منا وأهلنا الضر﴾ ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: ﴿قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى، ليحدث لذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾.

(١) لعل المراد والله أعلم: (وأن يبقى عنده أخوه).